

طالع الإسلام

للأستاذ عباس محمود العقاد



اسم كتاب
ألفه الدكتور
لورنس براون
أستاذ مقارنة
الاديان بجامعة
مانشستر ،
ونشره في
أوائل السنة
الماضية ١٩٤٤
وعرض فيه
الحركات
التجديد

والإصلاح التي ظهرت منذ القرن الماضي في أنحاء العالم الإسلامي من الهند إلى إيران ومصر ، وما يليها من الأقطار الآسيوية والإفريقية

وقد خرج من هذا العرض بخلاصة يسهل على الباحث من غير المسلمين أن يقبلها ، ولكن لا يسهل قبولها على المسلم الذي يؤمن بدينه ويعرف ما فيه من قوة على بعث الدزائم وإحياء الأمل ومزج الحديث بالقديم أو التقريب بين العقيدة والمعرفة وبين الأصول الدينية والأصول العلمية . فإن الخلاصة التي خرج بها الدكتور براون من عرضه أن الأمل في نهوض دعوة إنسانية تنفع البشر كافة من أعماق الروح الإسلامية ضعيف ، وإنه لا يرى في العصر الحاضر زعيم من الزعماء الروحانيين في الأقطار المحمدية خليف أن يحمل أعلام النهضة المرجوة ، أو يقود بني الإنسان في طريق الصلاح والتهديب ، ليحل لهم المشكلات الروحية والاجتماعية التي تواجههم عند كل خطوة بخطوتها في حياتهم المصرية

وتقليل هذا اليأس من مستقبل الإسلام عند الدكتور براون - أو من طوابعه كما سماها - أن الإسلام يمزج الدنيا عن الروح الإلهية ، ويجعل الوحي الذي يقود الأنبياء والمؤمنين عملاً خارجاً عن الإنسان يهبط عليه من السماء حين وحين وقد انقطع هبوطه على البشر بعد خاتم المرسلين . ويرغم الدكتور براون أن شأن الإسلام في ذلك غير شأن المسيحية والموسوية ، لأن روح الله تخرج بالإنسان في العقيدة المسيحية ، ولأن الموسوية أخرجت كثيراً من الأنبياء ونصت بعض آيات كتابها على تمني النبوة لجميع بني إسرائيل ليستمعوا من داخل سرائرهم إلى صوت الله . ويقول الدكتور براون إن الشعائر المادية في الموسوية والمسيحية إن هي إلا كناية عن الماني الإلهية أو الروحانية التي ترمز إليها ، وليست هي كذلك في الإسلام كما يقول

والذي فات الدكتور أن المسلم الذي يعتقد أن الله خلق آدم على صورته لا يمكن أن تعوزه الروح الربانية ولا أن يجرد الإنسان من هذه الروح ، وأن الآيات التي وردت في القرآن عن روح الله والروح عامة أكثر من نظائرها في الكتب الأخرى التي قلما تعرض لكلمة الروح بالمعنى الذي يستفاد من نصوص القرآن

وقد فات الدكتور براون شيء أهم من ذلك كان ينبغي ألا يفوته لأن الدليل عليه قائم من أطوار الحركات الإسلامية التي أشار إليها في كتابه ، وذلك الشيء المهم الذي فاتته هو أن الإيمان بنصيب الإنسان من الربانية أو بحلول الماني الإلهية في الإنسان لم يكن قط مسألة نصوص مكتوبة وشعائر ملحوسة ، وإنما هو مسألة فطرة تتمازج بها الأمم كما تتمازج بها الأفراد ، وقد نشأت عقائد الروحانية أو الإلهية في المسيحية من تفسير الفلاسفة والأخبار الذين آمنوا بالدين ولم تنشأ من السمكيات التي يقرأها كل إنسان في هذا الكتاب أو ذاك

وإن الدين الواحد لتؤثر به أمتان هذه غالبية في الوقوف عند المحسوسات ، وتلك غالبية في المزج بين عالم الحس وعالم الغيب ، أو في المزج بين الجسد والروح . وإن الكتاب الواحد ليقراء الرجلان في مدينة واحدة - بل في بيت واحد - فيفهمه أحدهما

الأمين في حربه الأبدية لإله الشر أهرمان

وفي الجزيرة العريضة ظهرت الدعوة الروائية التي تنكر الترف في البكساء والبناء ، وتبطل مبادئ الرموز والإشارات والتوسل بشيء من الأشياء يقع عليه الحس من جماد أو ذى حياة ومن اليسير جداً على المرء أن يلمس فطرة الصحراء في هذه الصرامة الخلقية وهذا الفصل الحامض بين عالم الحس وعالم الغيب ، خلافاً لتلك الأقاليم الهندية أو الفارسية التي امتزج فيها الحس بالتخيل واتصل فيها عالم الأرض وعالم السماء

وفي مصر ظهرت دعوة الإصلاح على يدى الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله فكانت تليماً جديداً في مدرسة قديمة ، أو كانت تفسيراً للقوانين الإلهية لا يخرج بها عن نصوصها ولكنه يحفظها في تلك النصوص ويقتبس منها المعنى الذى يوافق معارف العصر الحديث

ومن اليسير جداً على المرء أن يلمس في هذه الدعوة روح مصر التي عرفت نظام الحكم منذ آلاف السنين ، وتعودت أن تدفن بنصوص الأسماء والنهي من ملك بعد ملك وأسر بعد أسرة ، فليس فيما تعمله أو تدفن به إلا ما هو نص محفوظ أو مستمد من تفسير النص المحفوظ بالمعنى الذى لا يخرج عليه ، أو هي روح مصر التي عرفتها منذ قام فيها بالنبوة فرعونها أخناتون ، وهي الأمة الوحيدة التي تلقت نبوتها من عرش وصولجان

فالحركات التي تتمثل فيها روح التجديد أو الإصلاح بين المسلمين حركات أقوام وطوائف تختلف بينها في العقائد الروحية والريانية على حسب الفطرة التي طبعت عليها ، ولا تعرفها النصوص والكتابات عن اقتباس المبادئ التي تنهيا لها بفطرتها وقد وقع خلاف كهذا الخلاف بين المسيحيين والموسويين يرجع إلى أسباب كهذه الأسباب من أثر البيئة الإقليمية أو البيئة الثقافية أو البيئة السياسية

فليس في الإسلام إذن ما يمنع نشوء الحركات الروحية أو يمنع الاتصال بين روح الإنسان وروح الله ، وإن كان المسلمون يابون أن تلتى نصوص كتابهم كما يابى الكتابيون من المسيحيين والموسويين أن تلتى نصوص التوراة والإنجيل وإنما أصاب الدكتور براون في رأى واحد وهو كلامه عن حاجة النهضة الروحية إلى زعيم قدير ينفخ في الأذن الإسلامية

على طريقة المتصوفة أو القائلين بوحدة الوجود وبفهمه زميله كما تنهم الأوامر العسكرية كلمة وحرفاً حرقاً بنير تملق ولانأويل ولو شاء الدكتور براون لفطن لهذه الحقيقة الواضحة من التفرقة بين الحركات التي أوجلت الكلام عليها في الهند وإيران ومصر والحجاز ، وهي حركات القاديانية والبهائية ودعوة الإمام محمد عبده والإمام عبد الوهاب . فكل هذه حركات تجديد أو إصلاح نشأت في الإسلام وبين المسلمين واعتمدت على الكتاب الذى يدين به كل مسلم وهو القرآن الكريم ، ولكن الفرق بينها في الواقع هو الفرق بين فطرة الهند وفطرة الفرس وفطرة المصريين وفطرة العرب ، أو بين الأمزجة والعادات الذهنية التي تعودتها هذه الشعوب من موروثاتها القديمة وبيئاتها الفكرية والإقليمية

ففي الهند ظهر غلام احمد القاديانى فيشر بمذهبه الجديد وزعم أنه هو عيسى بن مريم وهو المهدي وهو الإمام المنتظر في مذهب الشيعيين ، وادعى فيما ادعى أنه تلبس بروح مريم المذراء ثم تلبس بروح المسيح على نحو لا تدركه العقول ، وصدق نفسه وصدق أناس من مريديه حين خيل إليه أنه روح الله حلت في جثمان إنسان لإنقاذ المسلمين والمسيحيين على السواء من الضلال

ومن اليسير جداً أن يلمس المرء في هذه الحركة بقية من بقايا البيئة الهندية التي نشأت فيها عقيدة تقمص الأرواح وتجدد الروح في جثمان بعد جثمان ، تارة جثمان ذكر وتارة جثمان أنثى ، ومرة رسم حيوان ومرة رسم إنسان

وفي البلاد الإيرانية ظهر مرزا علي محمد الشيرازي ، وزعم أنه الإمام المنتظر ، ثم انتحل عقيدة الاسماعيلية فيما يشبه القول بوحدة الوجود ووثب من ذلك إلى القول ببطلان الشريعة الظاهرة والأخذ بالحقيقة الباطنة التي تبيح أصحاب الحلول - حلول الإله في الإنسان - أن يتصرفوا في الأحكام والقواعد الدينية تصرف الوحي الجديد لأنهم يسعوجون مشيئة الله فيما يقولون ويعملون ، ثم جهر بالفناء بعض الشعائر المقدسة التي اتفق عليها المسلمون سنين وشيعيين حينما صرحت بها نصوص القرآن

ومن اليسير جداً أن يلمس المرء في هذه الحركة نزعة البيئة التي نشأت فيها طلائع الباطنية والاسماعيلية ، بل نزعة البيئة التي نشأت فيها الإعلان بحلول أورمزد في جسد «متر» رسوله